

233105



RESEARCH CENTRE FOR ISLAMIC HISTORY, ART AND CULTURE

Proceedings of the International Conference on
Islamic Civilisation in the
Mediterranean

Nicosia, 1-4 December 2010

Akdeniz'de İslâm Medeniyeti
Milletlerarası Konferans Tebliğleri

Lefkoşa, 1-4 Aralık 2010

Türkiye Diyanet Vakfı İslam Araştırmaları Merkezi Kütüphane	
Dem. No:	233105
Tas. No:	911.3 INT.C

İstanbul 2013

قبرص في التاريخ الإسلامي من العهد الراشدي حتى نهاية عصر المماليك

عمر عبد السلام تدمري*

الفتح الأول

تُعتبر قبرص أول جزيرة يغزوها المسلمون في البحر المتوسط على الإطلاق، فبعد أن تمّ لهم فتح بلاد الشام كلها في عهد الخلفاء الراشدين، رأى معاوية بن أبي سفيان والي الشام أن يصنع أسطولاً بحرياً يواجه به الأسطول البيزنطي، ولكن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يمتنع عن موافقته، حتى تولّى الخلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، فوافق على ذلك بشروط منها أن يحمل معاوية أهله معه في المراكب، وأن لا ينتخب الناس ولا يُقرع بينهم، بل يختيرهم، فمن اختار الغزو طائعاً يحمله ويُعينه.

وما إن وصل جواب الخليفة حتى أمر معاوية بإعداد الأسطول، وجّهز الأرزاق للناس وخرج بأهله وولده من دمشق إلى عكا بساحل فلسطين، ومنها انطلق قبل صلاة يوم الجمعة سنة 28هـ/649م. قاصداً جزيرة قبرص، فكانت باكورة أعمال المسلمين الحربية في البحر «إذ لم يركب المسلمون بحر الروم قبلها». وخرج في هذه الحملة جمع من الصحابة منهم: «أبو ذر الغفاري»، و«عبادة بن الصامت» وزوجته «أم حرام بنت ملحان»، و«المقداد بن الأسود»، و«شداد بن أوس»، و«أبو الدرداء الأنصاري».

وصادف المسلمون في البحر مراكب الروم وهي محملة بالهدايا قد بعث بها ملك قبرص إلى الامبراطور «قنسطانز الثاني»، فاستولوا عليها، وتابعوا سيرهم حتى رسوا على ساحل الجزيرة وأغاروا على نواحيها وغنموا الكثير من أهلها، حتى اضطر ملكها أن يطلب الصلح، فصالحه معاوية على أن يؤدي أهلها للمسلمين في كل سنة سبعة آلاف ومائتي دينار، وأن يؤدي للبيزنطيين مثل ذلك. واشترط عليهم أن يُخبروا المسلمين إذا تحرّك عدوهم من الروم للاعتداء عليهم، وأن المسلمين إذا خرجوا للغزو فلا يتعرّض أهل الجزيرة لهم، وليس عليهم أن يقاتلوا مع المسلمين، أي أن عليهم الوقوف على

* أستاذ دكتور، الجامعة اللبنانية-طرابلس

الحياد بين المسلمين والروم البيزنطيين. وأن يضع الخليفة بطريقاً (قائداً) منهم يحكمهم. فكان المسلمون إذا ركبوا البحر لم يعرضوا للجزيرة ولم ينصرهم أهلها ولم ينصروا عليهم.

فلما كانت سنة 32هـ/653م. نقض أهل قبرص الاتفاق وأعانوا الروم بمراكب قدموها لهم للغزو في البحر، فغزاهم معاوية في السنة التالية 33هـ/654م. في خمسمائة مركب بقيادة «موسى بن نصير»، وفتح الجزيرة عنوةً، حتى أقر أهلها على صلحهم، وبعث إليها باثني عشر ألفاً من أهل الديوان الموظفين، فبنوا بها المساجد، ونقل إليها جماعة من أهل بعلبك، وبنى بها مدينة، وبنى «ابن نصير» فيها حصوناً ومثابات (ملاجئ)، منها حصن يابس، وحصن المغوصة (فماغوستا). وظل أهلها ملتزمين بشروط الصلح إلى أن توفي معاوية سنة 60هـ/680م. وتولى ابنه «يزيد» فواجه معارضة قوية من خصومه، وضعفت قبضته على الجزيرة فأخرج المسلمين منها، وأمر بهدم المدينة التي بنوها.

وينقطع ذكر قبرص في المصادر العربية حتى أواخر العهد الأموي، حيث غزاها «الأسود بن بلال» سنة 125هـ/743م. من ساحل الشام، ومعه «عياش بن عتبة» في أهل مصر، وذلك في خلافة «الوليد بن يزيد بن عبد الملك»، وأصدر الخليفة أمراً للأسود بأن يأمر أهل الجزيرة بالجلء عنها ويخترهم بين أن يسيروا إلى بلاد الشام أو إلى بلاد الروم، فاخترت طائفة منهم أن تقيم بجوار المسلمين فنقلهم إلى ساحل الشام، وأسكنهم «الماحوز» على ساحل «لبنان» بين صيدا وصور. واختار آخرون أرض الروم فانتقلوا إليها. وقد اعترض علماء المسلمين وفقهاؤهم على هذا الإجراء واعتبروه متعسفاً بحق القبارصة، واستنكر الناس هذه الخطوة، ونزل الخليفة عند رأي الفقهاء وأمر برد النازحين إلى الجزيرة، ولقي قراره استحساناً لدى المسلمين.

ولم يستمر الوجود الإسلامي إلا بضع سنين، حيث جهّز إليها الإمبراطور «قسطنطين الخامس» أسطولاً قام بمهاجمة أسطول المسلمين المرابط على سواحلها، وتمكن من إنزال الهزيمة به، وأن يحتل الجزيرة من جديد سنة 128هـ/746م.

في العصر العباسي

ويعود ذكر قبرص في العصر العباسي، فتذكر المصادر أن الأسطول البيزنطي تجمّع على سواحلها وانطلق منها نحو سواحل الشام، ولقي المساعدة من نصارى «لبنان» في البر، وتمكنوا من مهاجمة اللاذقية وإحراقها، ثم اتجهوا جنوباً وهاجموا طرابلس ودخلوها سنة 140هـ/758م. وسرعان ما عاد الأسطول بعد ذلك إلى قبرص، دون أن تمدنا المصادر بتفاصيل أخرى. وتأخر الانتقام من القبارصة حتى سنة 146هـ/763م، إذ

خرج إليها أمير البحر الشامي «العباس بن سفيان الخثعمي»، فكان أول جيش للمسلمين يغزوها منذ قيام الدولة العباسية.

وكان الخليفة الأموي «عبد الملك بن مروان» زاد في أيامه على أهلها ألف دينار فوق ما كانوا يؤدونه بموجب الصلح الذي عقده معهم «معاوية» من قبل، وأصبح المبلغ ثمانية آلاف ومائتي دينار، وحين تولى الخلافة «عمر بن عبد العزيز» أسقط الزيادة التي قررها «عبد الملك»، ولما تولى الخلافة «هشام بن عبد الملك» عاد بفرض زيادة الألف دينار من جديد واستمر هذا الأمر هكذا إلى أن فتحت الجزيرة في هذه السنة، فأسقط «أبو جعفر المنصور» الزيادة وقال: «نحن أحقّ من أنصفهم»، وردّهم إلى صلح معاوية. وكان القبارصة ينقضون الصلح مع المسلمين من حين لآخر، ومن ذلك حول سنة 174هـ/791م. فأراد والي الثغور العباسي «عبد الملك بن صالح بن علي» أن ينقض صلحهم بالمثل لينتقم منهم، وقبل أن يُقدم على ذلك كتب إلى فقهاء المسلمين في بلاد الشام والحجاز ومصر يستشيرهم ويستفتيهم في مشروعية قتالهم، فلم يوافقوه على رغبته، رغم اقتناعهم جميعاً بأن أهل الجزيرة «لم يقفوا للمسلمين قط».

وفي ذلك يقول أبو عبيد بن سلام: «ثم كان بعد ذلك حدثٌ من أهل قبرص، وهي جزيرة في البحر بين أهل الإسلام والروم، قد كان معاوية صالحهم وعاهدهم على خرج يؤدونه إلى المسلمين، وهم مع هذا يؤدّون إلى الروم خرجاً أيضاً، فهم ذمة للفرقيين كليهما. فلم يزالوا على ذلك، حتى إذا كان زمان عبد الملك بن صالح على الثغور، فكان منهم حدثٌ أيضاً، أو من بعضهم، رأى عبد الملك أنّ ذلك نكثٌ لعهدهم، والفقهاء يومئذ متوافرون، فكتب إلى عدّة منهم يشاورهم في محاربتهم، فكان ممّن كتب إليه: الليث بن سعد، ومالك بن أنس، وسفيان بن عيينة، وموسى بن أعين، واسماعيل بن عياش، ويحيى بن حمزة، وأبو إسحاق الفزاري، ومخلد بن حسين، وكلهم أجابه على كتابه.

قال أبو عبيد: «فوجدت رسائلهم إليه قد استخرجت من ديوانه، فاختصرت منها المعنى الذي أرادوه وقصدوا له، وقد اختلفوا عليه في الرأي، إلا أنّ من أمره بالكف عنهم والوفاء لهم، وإن غدر بعضهم، أكثر ممّن أشار بالمحاربة».

وقد اعتمد معظم الفقهاء في ردودهم على ما ذهب إليه الإمام الأوزاعي وأفتى به قبلهم. وقد كان الأوزاعي يحدث أن المسلمين فتحوا قبرص فتركوا على حالهم، وصالحوهم على أربعة عشر ألف دينار، سبعة آلاف للمسلمين، وسبعة آلاف للروم، على أن لا يكتموا المسلمين أمر عدوهم، ولا يكتموا الروم أمر المسلمين. فكان الأوزاعي يقول: «ما وفي لنا أهل قبرص قط، وإنّا نرى أنّ هؤلاء القوم أهل عهد، وأنّ صلحهم وقع على شيء فيه شرط لهم وشرط عليهم، وإنه لا يستقيم نقضه إلا بأمر يُعرف به غدرهم ونكثُ عهدهم».

قال أبو عبيد: «فأرى أكثرهم قد وكّد العهد ونهى عن محاربتهم حتى يُجمعوا جميعاً على النكث، وهذا أولى القولين بأن يُتبع، وأن لا يؤخذ العوامّ بجناية الخاصة، إلا أن يكون ذلك مملاًة منهم ورضى بما صنّعت الخاصة، فهناك تحل دماؤهم».

وبالرغم من تكرار نقض أهل الجزيرة للصّح، وتسامح المسلمين معهم، فإنهم عادوا وأحدثوا ما يوجب قتالهم، ولذلك خرج إليهم «حُميد بن معيوف الهمداني» في سنة 190هـ/805م. ونزل على الجزيرة بأسطول ضخم «فهدّم وحرّق وسبى من أهلها ستة عشر ألفاً، فأتى بهم إلى الرافقة، وهي بلد متصل بالرّقة على ضفة الفرات، فتولّى يتّبعهم القاضي «أبو البختري»، وكان بين الأسرى أسقف قبرص، فبلغ ثمنه لوحده ألفي دينار.

وعاد الخليفة «هارون الرشيد» سنة 193-170هـ/808-785م. فوفى بصّلحه مع أهل قبرص بعد أن استقاموا، وأمر بردّ من أسر منهم وأطلق سراحهم، وعادوا إلى مواطنهم. واستقرّ الأمر للمسلمين في الجزيرة نحو قرنٍ من الزمان. قبل أن تعود للسيادة البيزنطية، حيث نقض حاكمها العهد في سنة 289هـ/902م. وعهدت إليه الإمبراطورية بمهمة الحيلولة دون اتصال مسلمي كريت بالمسلمين في ساحل الشام، وهذه خطوة لا يمكن التقليل من أهميتها وخطورتها في آن، فقد نجحت الإمبراطورية بتحقيق هدف استراتيجي، وأفقدت المسلمين قاعدة بحرية رئيسة، حيث كانوا يتخذون منها قاعدة لتجمع أساطيلهم من مصر والشام كلّما أرادوا الغزو في البحر. كما أفادنا بذلك «قدامة» المتوفى سنة 320هـ/931م. وهو يستعرض الثغور البحرية في كتابه «الخراج وصناعة الكتابة». على أن السيطرة البيزنطية لم تكن شاملة كل أنحاء الجزيرة، ونجد لهذا الأمر تأييداً في المصادر اليونانية المعاصرة لتلك الفترة، إذ يؤكّد «يوحنا كامنياتس» وهو قسيس مدينة سالونيك، أن أمير البحر المسلم «ليو الطرابلسي» عندما عاد من غزوته الكبرى إلى سالونيك سنة 291هـ/904م. رسا بسفنه عند سواحل قبرص وقام بإجراء إصلاحات لسفن الأسطول، ومنها أبحر إلى طرابلس، وكان بين الأسرى «كامنياتس» نفسه. وهذا يؤكّد عدم إحكام السيطرة البيزنطية على كامل أراضي الجزيرة. لذلك نراهم يوجهون عنايتهم نحوها بعد ذلك لتكون قاعدة متقدمة، فعملوا على شحنها بالمقاتلة وإمدادها بالسفن، وأخذت تمارس مزيداً من الإزعاج للمسلمين في البحر، وسكان الساحل الشامي. وقام الوزير البيزنطي «هيميريوس» بانتزاع بعض المعاقل الإسلامية التي كانت ما تزال بيد المسلمين في قبرص، وافتتح حصن القبة بعد حرب طويلة «وعدم أهلها إغاثة مُغيث من المسلمين» حسب تعبير «المسعودي». ومنها انطلقت الوزير بسفنه نحو ساحل الشام فنزل مدينة اللاذقية وأخذها، وسبى منها خلقاً كثيراً.

وقد أثار تلك الغزوة ردّ فعل قويّ وسريع لدى المسلمين، حيث هبّ أمير البحر

وصاحب الغزو في البحر الرومي «دَمِيان الصوري»، وشنَّ هجوماً بحرياً كبيراً على الجزيرة انتقاماً من أهلها لنتقض العهد مجدداً، ونزل بجُنْدِه وبِحَارته على أرض قبرص، وأقام أربعة أشهر يسبي ويحرق ويفتح مواضع قد تحصَّن فيها الروم، وعاد مظفراً، وذلك في سنة 298هـ/ 910م.

قبرص والحروب الصليبية

غير أن «المسعودي» وغيره من المؤرخين لم يوضح إن كانت الجزيرة أو قسم منها قد عاد لحكم المسلمين نتيجة لحملة «دَمِيان»، إذ تنقطع أخبارها في التاريخ الإسلامي بعد ذلك نحو مائتي عام، لتُخبرنا المصادر اللاتينية أنَّ الجزيرة كانت تابعة للبيزنطيين، وأنها أسهمت بدورها في الحروب الصليبية ضد المسلمين، وأن الإمبراطور البيزنطي أرسل الميرة والأخشاب والمسامير والمعدات اللازمة من قبرص إلى القائد التُّولوزي «ريمون دي سان جيل» لمساعدته في بناء حصنٍ لحصار مدينة طرابلس الشام، وذلك في سنة 497هـ/ 1104م.

وعندما مات «ريمون دي سان جيل» سنة 498هـ/ 1105م. وتولَّى القيادة مكانه «وليم جوردان» تابع سياسة التحالف مع البيزنطيين، فساعده الإمبراطور «ألكسيوس» عن طريق حاكم قبرص «يوماثيوس فيلاو كالس» حيث أمر بتقديم مبلغ كبير من المال إلى «وليم» ليبقى على ولائه وكان جنود الحاكم القبرصي عند اللاذقية بساحل الشام، فنقلوا الميرة في البحر لمساعدة الفرنج وهم يحاصرون طرابلس، غير أن أمير طرابلس «فخر المُلْك بن عمَّار» تصدَّى بسفنه لسفن القبارصة وهزمها، واستولى المسلمون على إحدى سفنهم «فأخذوها وأسروا من كان بها وعادوا». على أنَّ روح العداء بين الفرنج والمسلمين لم تمنع رجال التجارة من ممارسة نشاطهم بين الطرفين، فكان المسلمون يحصلون على التموين من قبرص وغيرها في خضمَّ الحروب المستعرة، فيفيدنا «ابن الأثير» أن المسلمين في طرابلس سنة 500هـ/ 1107م. كانوا يحصلون على الميرة من جزيرة قبرص وأنطاكية وجزائر البنادقة في البحر، وأن ذلك كان يساعدهم على مواصلة المقاومة أمام الفرنج.

كما يذكر المؤرِّخون اللاتينيون المعاصرون للحروب الصليبية أنَّ حاكم بيروت الفاطمي حين يئس من جدوى مقاومة الحصار أمام الفرنج، هرب إلى قبرص واستسلم لحاكمها البيزنطي 503هـ/ 1110م.

ولقد لعبت الجزيرة بحكم موقعها المتقدم في البحر والمواجه لساحل بلاد الشام دوراً مهماً في توفير المساعدة للصليبيين على استمرار احتلالهم، والإسهام في الدفاع عنهم في وجه السفن الإسلامية التي كانت تنطلق من سواحل مصر، وفي إحدى الغارات

553هـ/1158م. تمكن أسطول مصر أن يهزم الأسطول القبرصي، ووقع شقيق حاكم الجزيرة أسيراً، فأكرمه الوزير الفاطمي «طلّاح بن رُزيك» وحمله إلى الإمبراطور في القسطنطينية. كما وفّرت الجزيرة نقطة ارتكاز أساسية لأساطيل الفرنجة الآتية من أنحاء أوروبية لمهاجمة ديار المسلمين، فكانت تلك الأساطيل ترسو على سواحلها، وتحصل على التموين، وتقوم بإصلاح ما ينبغي إصلاحه من سفن ومعدّات حربية، ومن ذلك رُسوّ أسطول «ريتشارد» ملك إنكلترا سنة 587هـ/1191م. قبل الإبحار للمشاركة في حصار عكا.

قبرص والمماليك

تَحفَلُ المصادرُ التاريخية على اختلاف لُغاتها بأخبار قبرص ومشاركتها الواضحة في الحروب الصليبية التي استمرّت قرابة القرنين من الزمان، إلى جانب الفرنج ضد المسلمين، واستمرّ هذا الموقف العدائيّ حتى عصر المماليك الذين تطوّر الأمر في عهدهم، إذ تمّ على أيديهم إخراج من بقي من الصليبيين في كلّ بلاد الشام، وبما أن هؤلاء استمروا يتخذون من قبرص قاعدة للانقضاض من جديد على ديار المسلمين، فقد فرض ذلك الواقع المزعج على دولة المماليك أن تطوّر سياستها العسكرية نحو الهجوم، وتسيير الحملات البحرية للاستيلاء على الجزيرة نفسها، وإلى أن تتحوّل استراتيجية المماليك من الدفاع إلى الهجوم. وشهدت سواحل الشام ومياها أعمالاً حربية وغزوات ومطاردات واعتداءات كثيرة، كان يقوم بها القبارصة، بمفردهم أحياناً، وبمساعدة الفرنج أحياناً أخرى. وإذا شئتُنا أن نتتبع تلك الوقائع مفصّلة لامتدّ بنا البحث كثيراً، ويكفي أن أشير إلى حملتين كبيرتين قام بهما ملك قبرص «بطرس دي لوزنيان»، الأولى إلى الإسكندرية سنة 767هـ/1365م. والثانية إلى طرابلس الشام سنة 769هـ/1367م. وتبع ذلك حملات متبادلة بين الطرفين استمرّت أكثر من خمسين عاماً، إلى أن قام القبارصة مع الكتلان (من كتالونيا الإسبانية) بغارة واسعة سنة 825هـ/1422م. شملت سواحل مصر وبرقة والشام، فكان الردّ على ذلك في عهد السلطان «الأشرف برسباي» الذي سبّر إلى الجزيرة 3 حملات بحرية 827 و828 و829هـ/1424 و1425 و1426م. وتمكّن في الأخيرة من فتحها وأسر ملكها «جانوس» الذي اقتيد إلى القاهرة ولم يُطلق سراحه إلا بعد أن تعهد بأداء 200 ألف دينار، وأن يدفع 20 ألفاً جزية سنوياً. وأعيد حاكماً على الجزيرة تابعاً للسلطان.

غير أنّ قراصنة الفرنج لم يوقروا للمماليك حكماً هادئاً إذ كانوا يعملون على تأليب حكام الجزيرة، ويواصلون اعتداءاتهم انطلاقاً من قواعدهما، وشاركت شقيقة ملكها «جاك

الثاني دي لوزنيان) في حركة المقاومة لحكم المماليك مستعينة بفوزسان الإيبترية في رودس. وكان على المماليك أن يسيروا مراكبهم الحربية من حين لآخر لإعادة فتح حصون ومواقع خرجت عن سيطرتهم، ومنها ميناء فماغوستا في الشمال الشرقي، ومدينة بافوس في الجنوب الغربي، حتى تم فتح فماغوستا من جديد سنة 868هـ/1463م. واستمر حكام الجزيرة يؤدون الجزية للمماليك حتى بعد أن آل الأمر فيها إلى حكومة البندقية 894هـ/1489م.

وبعد سقوط دولة المماليك في مصر والشام 923هـ/1517م. وجد القبارصة فرصتهم ليتخلصوا من أداء الجزية، وعادوا إلى سياسة العداء للمسلمين، حتى جمع العثمانيون سفن أسطولهم في ميناء طرابلس الشام وفتحوا قبرص في سنة 978هـ/1570م. ومن هذا العرض السريع والموجز نقف على مدى ارتباط تاريخ الجزيرة بتاريخ المسلمين، لموقعها في المجال الحيوي من سواحل الشام ومصر، من جهة، والساحل العثماني من جهة أخرى. وقد ترك المسلمون فيها آثاراً كثيرة لا تزال قائمة إلى الآن، ودراستها تحتاج بحثاً آخر.

* * *

للقوف على تفاصيل المعلومات الواردة في هذا البحث وتوثيقها بعشرات المصادر الأساسية من عربية ولاينية ويونانية، يمكن العودة إلى مؤلفات الباحث، وفي مقدمتها:

- 1- دراسات في تاريخ الساحل الشامي (من الفتح الإسلامي حتى التحرير من الصليبيين) 5 أجزاء- طبعة طرابلس 1997-90م.
- 2- تاريخ طرابلس السياسي والحضاري (عصر دولة المماليك)- طبعة بيروت 1981م.
- 3- فتح قبرص في عصر المماليك (في النشرة الأخبارية لقبرص الشمالية) العددان 26 و 27 من السنة الأولى 1981م al-Nashra al-Ihbariyye، نقلاً عن مجلة «العربي» بالكويت، العدد 252.